

مدخل

ويشتمل على المسائل التالية :

المسألة الأولى : معنى العقيدة لغة واصطلاحاً :

ورد في أساس البلاغة : «عقد بناء معقود ومُعَقَّدٌ، جُعل عُقودًا أي طاقات معطوفة كالأبواب، وعَقَدَ بناءه، وعَقَّده، وتعقد السحاب إذا صار كأنه عقد مبني»^(١).

وورد في معجم الرائد : «عقد يعقد عقدًا الحبل أو نحوه جعل فيه عُقْدَة، وعقد البيع أو اليمين أو العهد أو نحوها أحكم شدة وأكدته»^(٢).

وفي المعجم الوسيط : «العقيدة : هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وفي الدين ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل والجمع عقائد»^(٣).

وقد وردت مادة عقد في القرآن الكريم وكان يقصد بها الإحكام والربط بين شيئين، والتوثيق.

يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] .

ويقول عز وجل : ﴿إِلَّا أَنْ يَتَّفِقُوا أَوْ يُعْفُوا الَّذِي يَدْرِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] .

ويقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣].

(١) أساس البلاغة للزمخشري (١٣١/٢).

(٢) الرائد جبران مسعود (١٠٣٨/٢).

(٣) المعجم الوسيط (٦١٤/٢).

ويقول عز وجل: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩] .

ويقول عز وجل: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِنَ لِسَانِي﴾ ﴿٧٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨] .

ويقول جل وعلا: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] .

وكلمة العقيدة في معناها اللغوي تعني الميثاق الذي ورد في القرآن الكريم بعدة معانٍ من بينها العهد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا أَتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١] .

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] .

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] .

هذه الآيات جميعها وردت فيها كلمة الميثاق بمعنى العهد والعقد^(١) .

أما معنى العقيدة في الاصطلاح فهي: «مجموعة من قضايا الحق المسلمة بالسمع والعقل والفترة يعقد عليها الإنسان قلبه ويشني عليها صدره جازماً بصحتها قاطعاً بوجودها وثبوتها»^(٢) .

ونستطيع أن نقرر في وضوح أن العقيدة الإسلامية هي الإيمان الجازم بالله من ناحية وحدانيته واتصافه بصفات الكمال وتنزيهه عن جميع صفات النقص، والإيمان الجازم بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره .

إن العقيدة في الإسلام تعني الإيمان كما ورد في القرآن الكريم بمعنى أنه

(١) انظر : تفسير الجلالين (ص ٤١٩)

(٢) مباحث في علوم العقيدة: د/أمنة نصير (ص ١٠) مكتبة الكليات الأزهرية.

في حقيقته ليس مجرد قول باللسان، ولا عمل بالبدن فحسب، وإنما هو عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجوانبها من كل ناحية سواء الإدراك أو الإرادة أو الوجدان، فلا بد من إدراك ذهني تتكشف به حقائق الوجود على ما هي عليه في الواقع وهذا التكشف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم^(١)، الذي لن تجده البشرية إلا في دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ خاتماً للأنبياء والرسل.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] ^(٢).

ثانياً: وحدة العقيدة:

ينبغي أن نقرر أن العقيدة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واحدة مع جميع الأنبياء والمرسلين من أول سيدنا آدم إلى سيدنا رسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] .

فأصول العقائد واحدة بين جميع الأنبياء والمرسلين ولكن الاختلاف يكون في التشريعات، فكل أمة لها من التشريعات ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكري والروحي.

يقول سبحانه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].
وينبغي أن نقرر في الوقت ذاته أن دين جميع الأنبياء هو الإسلام، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] .
ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

(١) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية: د/فتحي الزغي (ص ٨٣) .

(٢) انظر تفسير الجلالين (ص ٥١٧) .

ثالثاً: أهمية علم العقيدة:

علم العقيدة أو الإيمان أو التوحيد، أهم العلوم وأشرفها فهو بمثابة الرأس والقلب من الجسد، فكل العلوم تابعة لعلم العقيدة، أعني العلوم الشرعية، فإذا أراد الإنسان أن يدرس علم التفسير مثلاً فلا بد أن يتيقن أن القرآن الكريم كلام الله أنزله على قلب سيدنا محمد ﷺ وأن إثبات الرسالة من مفردات علم العقيدة، وإذا أراد أن يدرس علم الفقه والأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها، فلا بد أن يعتقد أولاً صدق الرسول ﷺ، وهكذا دواليك، ومن ثم فإن علم العقيدة تكمن منفعته في الدنيا بانتظام أمر المعاش وأما في الآخرة فهو النجاة من النار والفوز بالجنة.

وكما يقرر التفتازاني: «بأنه أشرف الغايات مع الإشارة إلى شدة الاحتياج إليه وابتناء سائر العلوم عليه والإشارة بوثاقة براهينه لكونها يقينيات يتطابق عليها العقل والشرع»^(١).

إن حاجة البشر إلى العقيدة الصحيحة فوق كل ضرورة؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون مع ذلك أحب إليها مما سواه ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه^(٢).

وتتمثل أهمية علم العقيدة في:

- ١- الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].
- ٢- إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة.
- ٣- حفظ قواعد الدين على أن تزلزلها شبه المبطلين.

(١) انظر شرح المقاصد للسعد التفتازاني (١ / ٨) بتصرف يسير.

(٢) شرح الطحاوية بتصرف (ص ١٧) تحقيق الشيخ: أحمد شاكر.

- ٤- أن يبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها.
- ٥- صحة النية والاعتقاد إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين.

التوضيحية من أجل العقيدة:

للعقيدة ثمرات كثيرة يجنيها المسلم في حياته وبعد مماته، ففي حياته يكون له مبدأ يدافع عنه ويموت في سبيله ويضحى من أجله، ولقد ذكر القرآن الكريم الكثير من النماذج لأصحاب العقائد الثابتة الذين دفعوا ثمنًا لعقيدتهم ويأتي على رأس هؤلاء جميعًا الأنبياء والرسل.

من أجل الدفاع عن العقيدة وجد الشهداء الذين قابلوا الموت بوجوه ضاحكة، ونفوس مستبشرة، ولسان أحدهم يقول فزت ورب الكعبة.

من أجل الدفاع عن العقيدة الصحيحة وجد المؤمنون الأوفياء الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] (١).

وما أصحاب الأخدود وأهل الكهف وزوجة فرعون وصحابة النبي ﷺ إلا نماذج حيّة، واضحة أماننا، لمن يريد أن يقتدي بهم ويسير على دربهم ليفوز بما فازوا به من عز وكرامة في الدنيا، وجنات ونهر في الآخرة، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

* * *

(١) وانظر العقيدة والأخلاق (ص ٨-٩)

رابعاً: الأسماء التي تطلق على علم العقيدة:

١- علم التوحيد:

وسُمي بعلم التوحيد لأن مبحث الوجدانية أشهر مباحثه ^(١)، ولذلك اشتهر بين الدارسين والعلماء بعلم التوحيد إذ ما جاء رسول ولا نبي إلى قومه إلا بالتوحيد، يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ويقول عز وجل: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

يقول الإمام محمد عبده: «أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسُمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهذا المطلوب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ ^(٢)، وكل الأنبياء والمرسلين من قبله.

وقد عُرفت تسمية علم العقيدة بعلم التوحيد من قديم حيث عُرف كتاب التوحيد للإمام أبي منصور الماتريدي، وكتاب التمهيد لقواعد التوحيد للإمام النسفي، وشاعت في العصور المتأخرة فألف الشيخ اللقاني جوهرية التوحيد التي شرحها الإمام البيجوري وألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» وجمال الدين القاسمي له كتاب يسمى «دلائل التوحيد» والشيخ محمد عبده له «رسالة التوحيد»، وعُرف تدريس العقيدة الإسلامية في معاهد الأزهر الشريف وجامعته باسم «مادة التوحيد» ^(٣).

وهذه التسمية هي ما نستريح إليه ونفضل إطلاقها على علم العقيدة لأنه فضلاً عن أن صفة الوجدانية أشهر مباحث علم التوحيد، فإن التوحيد علم

(١) البيجوري على الجوهرة (ص ١٦).

(٢) رسالة التوحيد (ص ٢٠).

(٣) انظر بتصرف دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٥١ - ٥٢).

على دين الإسلام، كما أن التثليث علم على النصرانية المبدلة والإسبات أي الراحة يوم السبت علم على اليهود والتناسخ علم على الهنود كما يقرر البيروني^(١).

٢- علم الفقه الأكبر:

أول من أطلق على علم العقيدة علم الفقه الأكبر الإمام أبو حنيفة ووجه التسمية بهذا أن علم التوحيد هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع.

يقول شارح الطحاوية: «ولهذا سمي الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين الفقه الأكبر؛ لأن حاجة العباد إليه فوق كل حاجة وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة»^(٢).

وقد رجح بعض الباحثين المعاصرين هذه التسمية ودلّل عليها ببعض الأدلة منها:

١- أنها تسمية ذات أسس عريقة قرآنية فضلاً عن خلوها من المآخذ التي تثيرها التسمية المشهورة بعلم الكلام.

٢- أن هذه التسمية ترفع مكانة هذا العلم الباحث في الأحكام الشرعية الاعتقادية الذي سماه «بالفقه الأكبر» فوق علم الفقه أو العلم الباحث في الأحكام العملية الفرعية من حيث إن هذه الأخيرة تنبني على صحة الاعتقاد بأصول الدين من معرفة بالشارع سبحانه، وبصحة ورود الشريعة ووجوب التزام المكلف بها، ومن ثمّ كانت هذه أصولاً والأولى فروعاً^(٣).

٣- أنها تبين ارتباط هذا العلم «التوحيد» بعلوم الشريعة الإسلامية ومكانته بين العلوم من ناحية، كما أنها من ناحية أخرى تتيح له التوسع والتفتح

(١) انظر تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٣٩) عالم الكتب الطبعة الثانية ١٩٨٣م

(٢) شرح الطحاوية (ص ١٧)

(٣) المدخل لدراسة علم الكلام (ص ١٤)

ليتضمن بحث الأصول الفكرية للدين الإسلامي سواء كانت مما يلزم اعتقاده أو مما ينبثق عن هذه العقيدة أو يرتبط بها من أصول ومبادئ عامة تصور موقف الإسلام من الكون والحياة والإنسان^(١).

٣- علم أصول الدين:

سُمي علم العقيدة بعلم أصول الدين لأن المسائل التي يقوم بإثباتها والدفاع عنها هي الأصول العقدية التي ينبغي على المكلف العلم بها.

يقول شارح الطحاوية: «فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة لفقه الفروع»^(٢).

وكثيراً ما كان العلماء يسمون بحوثهم في العقيدة بعلم أصول الدين أو أصول الملة أو الديانة، فالإمام الأشعري ألف كتابه: «الإبانة عن أصول الديانة»، وللجويني كتاب سماه: «الشامل في أصول الدين»، والبغدادى ألف كتاباً في العقيدة سماه: «أصول الدين»، وللإمام فخر الدين الرازي كتاب معنون بـ «الأربعين في أصول الدين»، يقول في مقدمته: «فهذا مختصر يشتمل على خمسة أنواع من العلوم المهمة فأولها علم أصول الدين»^(٣).

ولللغزالي أبي حامد كتاباً اسمه: «الأربعين في أصول الدين» تحدث فيه عن كثير من الأصول العقدية التي تتعلق بالإلهيات والسمعيات^(٤).

وكذلك عندما أنشئت الكليات في الجامع الأزهر أطلق علي الكلية التي تقوم بتدريس مادة العقيدة الإسلامية وما يتصل بها من قريب أو بعيد كلية أصول الدين^(٥).

(١) المدخل لدراسة علم الكلام: د/ حسن الشافعي (ص ١٤ ، ٣٢ ، ٣٣)

(٢) شرح الطحاوية (ص ١٧)

(٣) الأربعين في أصول الدين بهامش محصل أفكار المتقدمين (ص ٣)

(٤) انظر دراسات في العقيدة (ص ٤٦)

(٥) نفس المصدر (ص ٤٧)

٤- علم الكلام:

من أشهر الإطلاقات على علم العقيدة «علم الكلام» لأن أبوابه عُنونت بالكلام في كذا، أو لأنه قد كثر الاختلاف فيه حول مسألة الكلام^(١).

يقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد: «وقد يسمى» أي علم العقيدة: «علم الكلام، إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها، وإما لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للفرقة بينهما»^(٢).

وكلام الشيخ محمد عبده تلخيصاً لما قاله صاحب المواقف وشارح المقاصد وما أورده صاحب العقيدة النسفية.

وينفذ الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى السبب الحقيقي لتسمية علم العقيدة بعلم الكلام يقول: «وإنما سمي البحث في الشئون الاعتقادية كلاماً وسمي أهله متكلمين لأحد وجهين:

أولهما: يؤخذ مما رواه جلال الدين السيوطي (٩١٤هـ) في كتاب «صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام» وأخرج عن مالك رضي الله عنه المتوفى (١٧٩هـ) قال: «إياكم والبدع. قيل: يا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان».

ويورد الشيخ مصطفى عبد الرازق نصوصاً كثيرة عن رسول الله ﷺ وعن

(١) شرح البيجوري على الجوهرة (ص ١٦)

(٢) رسالة التوحيد (ص ٢٠ - ٢١)

الصحابة والسلف تدم الكلام والذين يشتغلون به.

ثانيهما: يؤخذ مما نقله ابن عبد البر المتوفى (٤٦٣هـ) في كتاب «مختصر جامع بيان العلم وفضله»، عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: كان مالك بن أنس يقول: «الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهنم والقدر وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما فيه عمل»^(١).

وهو تعليل مقبول إلى حد كبير من الناحية الاصطلاحية؛ لأن أبواب الفرق كانوا يُعرفون بالمتكلمين في مقابل السلف الذين كانوا يسكتون عن الكلام فيما نهوا عن الخوض فيه.

تعريف علم الكلام على النحو الاصطلاحي الذي اشتهر به عند مؤرخي العقيدة وأرباب الفرق والمقالات

أولاً: عند الإمام الغزالي:

يقول عنه: «وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة»^(٢).

ويشرح الغزالي الغاية من علم الكلام والاشتغال به فيذكر: «أن الله ألقى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثّة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله»^(٣).

ويعلق المرحوم الدكتور عبد الحلیم محمود على كلام الغزالي بقوله: «نرى

(١) انظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٢٦ - ٢٦٧) بتصرف.

(٢) المنقذ من الضلال (ص ٧٨)

(٣) نفسه (ص ٧٩)

الإمام الغزالي مع هدمه في النهاية لعلم الكلام مجاملاً للمتكلمين»^(١).

وهذا كلام الإمام الدكتور عبد الحليم محمود الخبير المحيط بآراء الغزالي في المتكلمين والفلاسفة وسائر الفرق.

ثانيًا: عند ابن خلدون:

يعرف ابن خلدون علم الكلام بأنه: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات من مذاهب السلف وأهل السنة»^(٢).

ولعلنا نجد وجه الشبه واضحًا بين تعريف ابن خلدون وتعريف الإمام الغزالي من قبله، ومفاد التعريفين أن السلف أخذوا العقائد الإيمانية من الكتاب والسنة ثم جاء المتكلمون وأوضحوا تلك العقائد وجادلوا بها المعاندين ليدفعوا البدع التي أثارها المبتدعون حول عقائد السلف.

ويعرفه التفتازاني بقوله: «الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية وموضوعه العلوم من حيث ما يتعلق به إثباتها ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية، وغايته تحلية الإيمان بالإيقان، ومنفعته الفوز بنظام المعاش ونجاة المعاد فهو أشرف العلوم»^(٣).

وواضح من تعريف التفتازاني أنه يجعل علم الكلام قائمًا على الأدلة اليقينية المستمدة من الكتاب والسنة.

ويعرفه عضد الدين الإيجي بأنه: «علم يقتدر به معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»^(٤).

(١) هامش المنقذ من الضلال (ص ٧٨)

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٠٠)

(٣) شرح المقاصد انظر (ص ١٧٩ ، ١٩٠) تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة

(٤) المواقف (ص ٧)

ويشرح التعريف فيذكر: «أن المراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن أخطأناه لا نخرجه من علماء الكلام»^(١).

ويلاحظ الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الإيجي في تعريفه يجعل علم الكلام أداة دفاع لكل معتقد عن عقيدته سواء أكانت على منهج السلف أو كانت على غيره؛ لأن مفاد تعريفه أن دفاع المبتدع عن عقيدته بالبراهين العقلية كلام أيضاً^(٢).

خامساً: حكم الاشتغال بعلم الكلام:

دار أخذ ورد بين العلماء في الاشتغال بعلم الكلام ما بين مُحرم له وما بين مجوز للاشتغال به، بل وبعض العلماء أوجب الاشتغال به لمن كانت عنده القدرة على الجدال.

قد لخص الإمام الرازي حجج المانعين للاشتغال بعلم الكلام ثم فندها:

١- حجج القائلين بعدم جواز الاشتغال بعلم الكلام:

قوله تعالى: ﴿مَا صَرَّيْتُهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] فيه ذم الجدل وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] قالوا: فأمر بالإعراض عنهم عند خوضهم في آيات الله تعالى.

٢- استدلو بقوله ﷺ: «إذا ذكر القدر فأمسكوا» وبأن هذا العلم لم تتكلم فيه الصحابة فيكون بدعة، وما نقل عن مالك بن أنس: «إياكم والبدع قيل: وما البدع يا أبا عبد الله؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه ولا يسكتون عما سكنت عنه الصحابة والتابعون».

(١) المواقف (ص ٧)

(٢) التمهيد (ص ٢٦٢)

وسئل سفيان بن عيينة عن الكلام فقال: اتبع السنة ودع البدعة.

وقال الشافعي رضي الله عنه لأن يتلى العبد بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من الكلام.

هذه كانت حجج المانعين للاشتغال بعلم الكلام بإيجاز^(١).

وقد أجيب عن هذه الحجج بالآتي:

١- أن الجدل في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨] محمول على الجدل بالباطل، توفيقاً بينه وبين قوله: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وأما قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيَّ، إِنِّي نَأْيُ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] فالخوض ليس هو النظر بل الخوض في الشيء هو اللجاج والخصومة المؤدية إلى النزاع.

٢- أما قوله ﷺ: «إذا ذكر القدر فأمسكوا» يقول عنه الرازي: فضعيف؛ لأن النهي الجزئي لا يفيد النهي الكلي.

أما استدلالهم بأن الإجماع منعقد على أن الصحابة والسلف لم ينشغلوا به.

فلو كان المراد أن الصحابة لم يستعملوا ألفاظ المتكلمين فمسلم، لكنه لا يلزم منه القدح في الفقه ألبتة، ثم إن الصحابة لم يستعملوا ألفاظ الفقهاء ولا يلزم منه القدح في الفقه، ثم إن الصحابة لم يستعملوا هذه الألفاظ لأن مثلهم كمثل قوم ليس بحضرته من يقاتلهم فلا يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح^(٢).

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (١/١٠٠-١٠٥) وانظر تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٧١ - ٢٧٣)، وانظر مقدمة المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود (ص ٣٩ - ٤٠) وانظر: المدخل لدراسة علم الكلام (ص) د/حسن الشافعي.

(٢) انظر هذه الحجج مفصلة لدى الرازي في التفسير الكبير (١/١٠٢-١٠٤)، وانظر المدخل لدراسة علم الكلام (ص ٤١ - ٤٢).

وأما تشديد السلف على الكلام فهو محمول على أهل البدع والمخالفين للكتاب والسنة وهذا ما يشهد له اشتغالهم هم أنفسهم بلون من الكلام يتفق في رأيهم مع القرآن الكريم ويعتمد على السنة الصحيحة ومدارك العقول. فألف أبو حذيفة الفقه الأكبر والفقه الأوسط والوصية والعلم والمتعلم. وناظر الشافعي حفصاً الفرد وغيره وهو من المتكلمين المبتدعين، ورد على المرجئة، وألف الإمام أحمد كتاب: «الرد على الجهمية» وكلها مؤلفات في الكلام إلا أنه كلام موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة جاء على نهج الكتاب والسنة.

موقفنا إزاء هذه الحجج من المانعين والمجوزين:

نرى أن من التزم من المتكلمين بأدلة الكتاب والسنة والأدلة العقلية المستقاة منهما فلا ضير عليه بل هو مأجور إن شاء الله، أما من خالف الكتاب والسنة وجادل بالباطل لا لنصرة الحق في ذاته وإنما لنصرة مذهبه أو القواعد والأصول التي بُني عليها مذهبه، فهو مذموم، ومرتكب ما نُهي عنه. وكما يقول أستاذنا الدكتور حسن الشافعي بعد أن استعرض رأي المانعين والمجوزين باستفاضة:

«أحسب أن من شاركنا من القراء في استعراض المواقف السابقة ثم دعت دواع فكرية أو اجتماعية أو تعليمية للاشتغال بعلم الكلام يستطيع أن يقدم على ما يريد دون حرج في الصدر أو تردد في الخطو ينشأ من السؤال التقليدي حول مشروعية البحث في علم الكلام»^(١).

على أن يكون القصد من وراء الاشتغال بنصرة الإسلام والدفاع عنه كما فعل علماء الكلام، في بداية نشأته، يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم: «ولقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها

(١) المدخل لدراسة علم الكلام (ص ٤٨)

الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل يتمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه في هذا الموقف أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحاً وأشدّهم تمكناً وأكثرهم تحالفاً وأوسعهم تنوعاً»^(١).

بل إن أستاذنا الدكتور يحيى هاشم ليعتبر أن من فضل الله على الأمة أن وفق علماء الكلام للذود عن الإسلام، يقول: «وإن المرء ليكاد يؤخذ من هول تصوره لما كان يمكن أن يحدث لو أن هذا الهجوم العقدي وجد المسلمين فراغاً والتقى فيهم بالمواقف السلبية»^(٢).

وحول الجدل والتفرق بين المسلمين الذي صاحب نشأة علم الكلام يقول: «ومهما يكن القول في آثار هذا العلم التي لا تكاد تمحى في إحداث المذاهب وترسيخ التفرق وإثارة الجدل فإن قيامه بعبء هذا الهدف الجليل، يحتم علينا إغضاء الطرف عما اضطر إليه من ذلك»^(٣).

ومفاد كلام أستاذنا أن ما قدمه علم الكلام في بدايته من إيجابيات يفوق سلبياته.

اقسام علم العقيدة:

جرت عادة العلماء على تقسيم علم العقيدة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الإلهيات: ويختص الحديث في هذا القسم عن ذات الله من حيث ما يحب له وما يستحيل وما يجوز في حقه عز وجل، وكذا مسألة وجود الله ووحدانيته ومسألة الصفات والقضاء والقدر.

القسم الثالث: السمعيات: وهي التي تتعلق بالأمور التي لا طريق إلى إثباتها

(١) انظر أستاذنا الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل: الأسس المنهجية (ص ٩)

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٩)

(٣) نفسه وانظر عوامل وأهداف علم الكلام طبعة مجمع البحوث الإسلامية

إلا بالنصوص الواردة عن الله وعن رسوله ﷺ كاليوم الآخر ومشاهدة الجنة والنار، وكالملائكة، والجن والشياطين، كل هذه العقائد من السمعية، والتي يتكفل علم العقيدة بإثباتها والاستدلال عليها. هذا هو التقسيم المشهور.

وهناك من يقسم علم العقيدة إلى الإلهيات، والسمعية ويدخل النبوات في السمعية من حيث إن تصديق النبي يتوقف على السمع. وهناك مباحث أخرى تتعلق بعلم العقيدة مثل الأسماء والأحكام ومبحث الإمامة الذي يذكر غالباً في نهاية كتب العقيدة، ويبدو أن أهل السنة والجماعة ألحقوا هذا القسم بكتب العقيدة لأنهم كانوا يناقشون ويجادلون الشيعة، في كون الإمامة من أركان الدين.

المسألة السادسة: الأمور العقيدية في عهد الرسول ﷺ:

جاء محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، واهتم القرآن الكريم بتأصيل العقيدة وتأسيسها خاصة في المرحلة المكية، وجميع أركان العقيدة شملها القرآن الكريم ببيان واضح، وبينها النبي ﷺ.

على أنه كانت تعرض أسئلة عقيدية على الصحابة فكانوا يسألون النبي ﷺ عنها، ويستوضحون معانيها، ولكن صحابة النبي ﷺ كان يشغلهم العمل بالقرآن عن الخوض في متشابهه وكانوا لا يتكلفون الأسئلة ولا يتفقهون ولا يتشققون.

وهناك بعض آيات القرآن الكريم مما يتعلق بالعقيدة فسرّها النبي ﷺ وتلقاها الصحابة بالقبول والتسليم.

ففي قول الله تعالى فيما حكاه عن اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

فسر النبي ﷺ هذه الآية، فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله ملأى لا تفيضها نفقة سحاء الليل والنهار»، وقال: «أرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يفيض ما في يده وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»^(١).

قال الترمذي: «هذا الحديث حسن صحيح. وقد روته الأئمة هكذا: يؤمن به كما جاء من غير أن يفسر أو يتوهم»^(٢).

هنا لم يسأل الصحابة هل اليد بمعنى القدرة؟، أو يسألون عن كيفية ملأ يد الله ولم يسألوا عن العرش وكيفيته والميزان وحقيقته، وإنما كان يكفيهم بيان النبي ﷺ وسكوته.

ومن قبيل هذا ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأراضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول: «أنا الملك أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الخبر تصديقاً له ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»^(٣).

هنا لم يسأل الصحابة عن معنى الإصبع؛ لأنهم لم يكن لهم هم إلا التصديق والعمل النافع، وكانوا يتوقفون عند بيان رسول الله ﷺ سواء فيما سأله عنه أو أخبرهم به أو سكت عنه ﷺ.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: «أندرون ما أخبارها».

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] (٢٠٢/٣)

(٢) سنن الترمذي (٥ / ٣٤)

(٣) انظر: فتح الباري (٨ / ٤١٢)

عمل على ظهرها تقول: عمل كذا، وكذا، وكذا، فهذه أخبارها»^(١).

وقد بين ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وزوجاته ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم من ينظر إلى الله غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]»^(٢).

هكذا فسر وبين ﷺ وقبل الصحابة - بالتسليم - ما ورد عنه ﷺ، وإن أراد القارئ أن يعرف الفرق بين تلقي الصحابة لهذه الآية وبين غيرهم من علماء الكلام فليتنظر إلى كتب المتكلمين وما أثاروه حول هذه الآية ودلالاتها^(٣).

لقد نهى القرآن الكريم عن الجدل بغير حق وإن كان الله عز وجل قد أفرد آيات كثيرة لجدال المشركين في قضايا الوجدانية والنبوة واليوم الآخر وجادل اليهود والنصارى فيما كانوا يثيرونه حول الوحي والنبوة، إلا أنه لا يمد في حبل الجدل حرصاً على الألفة.

وكثيراً ما تختتم آيات الجدل بمثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨-٦٩]»^(٤).

هذا الجدل في العقائد عرض له القرآن للحجة وعلى مقدارها من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه، بل هو قد نفرهم منه في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا

(١) أخرجه الترمذي في التفسير باب ومن سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ [الزلزلة: ١] [٥/٢٣٣-٢٣٤].

(٢) تحفة الأحوذى (٧ / ٢٧٠).

(٣) انظر الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٢٣٣) وانظر الكشف للزمخشري (٤ / ١٩٢) وانظر الفصل (٣ / ٢ - ٣).

(٤) انظر تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٧١).

ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَعَزَّنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ [المائدة: ١٤] ^(١)، وهذه العداوة والبغضاء بسبب الجدل والاختلاف والشقاق الذي ذمه الله عز وجل في كتابه، ونهى المؤمنين عنه إلا بالتي هي أحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ونلاحظ أن الله - رب العالمين - لم يطلب الحسن في الجدل وإنما طلب الأحسن حتى ينتبه المجادل المسلم جيدًا لما ينبغي أن يكون عليه فكرًا ونفسًا ولفظًا ^(٢).

ولذلك وقف النبي ﷺ ضد الجدل والمراء في الدين وحذر الصحابة منه والأمة من أضراره.

وقد وردت الأحاديث عن النبي ﷺ التي تنهى عن الجدل والمراء وورد عن السلف الصالح آثار تسير في اتجاه التحذير من الجدل والخصومة والتعقر والبحث عن دقيق الأمور وغوامضها والبحث في المتشابه منها ما أورده السيوطي عن كتاب «ذم الكلام وأهله» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي المتوفي سنة (٤٨١هـ)، أخرج عن طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضبًا حتى وقف عليهم فقال: «يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضًا ما عرفتم منه فاعملوا وما تشابه فآمنوا به».

وأخرج عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ثم قال: أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ ما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا».

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير (١ / ٤٩٨)

(٢) مدخل إلى الاستدلال القرآني (ص ٩٠).

وأخرج عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ووائل بن الأسقع قالوا: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا قال: «يا أمة محمد لا تهيجوا على أنفسكم، ثم قال: أبهذا أمرتكم؟ أو ليس عن هذا نهيتكم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ثم قال: ذروا المراء^(١) لقلة خير، ذروا المراء فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوان، روا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحبط العمل، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فكفى بك إثماً ألا تزال مماريئاً، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في وسطها ورباضها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد، ولكن رضي بالتحريش وهو المراء في الدين، ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنين وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم»، قالوا: يا رسول الله وما السواد الأعظم؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي». ثم قال: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء»، قالوا يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون في دين الله»^(٢).

ولا شك أن هذا النهي قد أثر تأثيراً كبيراً في الصحابة فلم يسألوا ولم يجادلوا ولم يماروا في شيء من أمور الدين، وكما يقرر المقرئ في الخطط: «أن من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصفه الرب

(١) المراء: تمارى القوم: تجادلوا، وتماهى في الشيء شك فيه وفي القرآن الكريم: ﴿فَبَآئِيَ ءَالَهُ رِيكَ نَتَمَارَى﴾ [النجم: ٥٥] انظر المعجم الوسيط (٨٦٦/٢).

(٢) نقلاً عن كتاب ذم الكلام لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي. انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٨٢-٢٨٣).

سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات ولم يفرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام، والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقاً واحداً، وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة»^(١).

بهذه النظرة الشاملة عبر المقرئ عن عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم وأنهم كفاهم ما نزل به القرآن وما حدثهم به النبي ﷺ وأن الجدل في الذات والصفات وسائر الأمور العقدية حدث بعد عهدهم رضوان الله عليهم.

والخلاصة التي تنتهي إليها هي أن الأمور العقدية من أصول الدين بينها الله في القرآن أحسن بيان، فقد بيّن دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته وبيّن دلائل نبوة الأنبياء، وبين المعاد وقدرة الله عليه، فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة ومعلومة تتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق، وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك، وليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق، فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول ﷺ وإمكان المعاد أو وقوعه، وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع، وكل ما خالفوا فيه الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضاً^(٢).

(١) خطط المقرئ (١٨٠/٤ - ١٨١).

(٢) انظر: النبوات لابن تيمية (ص ١٤٥).

ويذكر ابن القيم أن الصحابة قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيماناً، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدو الشيء منهم إبطالاً ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورهم وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً وأجروها على سنن واحدة ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عشرين وأقروا بعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين (١).

وبالجملة فقد فارق النبي ﷺ الحياة الدنيا والصحابة مجتمعون متحدون على رأي واحد في أصول الدين وعقائده، وبعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حدثت اختلافات اجتهادية من الصحابة، سنتحدث عنها إن شاء الله تعالى.

المسألة السابعة: النظر العقدي في عهد الخلفاء الراشدين:

ذكرنا ما قرره العلماء أن المسلمين عند وفاة رسول الله ﷺ كانوا على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه غير من أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً، كما يقول البغدادي في أصول الدين (٢).

وقد تكلم أكثر من واحد حول الاختلافات التي حدثت بعد عهد النبي ﷺ كالأشعري في مقالات الإسلاميين والبغدادي في الفرق بين الفرق والشهرستاني في الملل والنحل.

(١) إعلام الموقعين (٤٠/١) دار الحديث.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٤).

أول خلاف وقع منهم: اختلافهم في موت النبي ﷺ، فزعم قوم منهم أنه لم يموت وإنما أراد الله رفعه إليه كما رفع عيسى ابن مريم إليه، وقد زال هذا الخلاف، وأقر الجميع بموته حين تلا عليهم أبو بكر الصديق قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال لهم: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»^(١).

وهنا نلاحظ أن الخلاف قد ارتفع ببركة صدق ويقين الصديق رضي الله عنه، ولكن فكرة الرفع تلك إذا كانت قد حُلَّت بتلاوة الصديق لآيات من القرآن الكريم، فقد كان لها دلالتها العقلية الخطيرة فيما بعد، لأن تفسير الموت بمعنى الرفع من قبيل التأويل الذي اتخذته بعض الفرق منهجًا أساسيًا في تخريج مسائل العقيدة، من الممكن أن يكون لهذا القول الأثر في القول بالرجعة عند بعض فرق الشيعة^(٢).

وقد جهر ابن سبأ بالقول بالرجعة فيما بعد، فقد زعم أن النبي ﷺ سيرجع مرة أخرى، وجهر بهذه الفكرة في حياة سيدنا محمد ﷺ، ثم بعد وفاة علي رضوان الله عليه صرح بأن عليًا لم يموت وإنما صعد إلى السماء وسيرجع مرة أخرى^(٣).

وعلينا أن نفرق تفريقًا جذريًا بين قول عمر رضوان الله عليه بأن محمدًا لم يموت، وبين رجوعه عن تلك الكلمة لما ذكره الصديق بالآيات القرآنية التي تتحدث عن وفاة الرسول ﷺ... إذ إن عمر من فرط حبه وتعلقه بالنبي ﷺ أصيب بصدمة عاطفية، جعلته يقول مقالته، بينما ابن سبأ قد أثار بالكلمة فتنة وعمد إلى إفساد عقيدة المسلمين، ولأنه يهودي كان يقصد الإثارة والفتنة ويعمد إلى بث بذور الشقاق والخلاف بين المسلمين الأوائل^(٤).

(١) الفرق بين الفرق (ص ١٤ - ١٥).

(٢) العقيدة الإسلامية (ص ١١٦).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

(٤) انظر: في فتنة عبد الله بن سبأ الاختراق اليهودي (ص ٥٠ - ٥٤).

الخلاف الثاني: في دفنه ﷺ، فأراد أهل مكة رده إلى مكة لأنها مولده ومبعثه وقبلته وموضع نسله وبها قبر جده إسماعيل عليه السلام، وأراد أهل المدينة دفنه بها لأنها دار هجرته ودار أنصاره، وقال آخرون بنقله إلى أرض القدس ودفنه ببيت المقدس عند قبر جده إبراهيم الخليل وزال هذا الخلاف بأن روى لهم أبو بكر الصديق عن النبي ﷺ أن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون، فدفنوه في حجرته بالمدينة (١).

ونلاحظ كما لاحظنا من قبل أن كلام الصديق قُبِلَ بلا مراجعة ولا جدال ولا تحزب لرأي ضد آخر.

الخلاف الثالث: في الإمامة: فقد قال الأنصار للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، وأذعنت الأنصار لسعد بن عباد الخزرجي، وقالت قريش إن الإمامة لا تكون إلا في قريش، ثم أذعنت الأنصار لقريش لما روي لهم قول النبي ﷺ: «الأئمة من قريش» وكان الذي أعلمهم بذلك الصديق رضوان الله عليه، وقد نزل الصحابة على رأيه، وبايعوه واجتمعوا على إمامته واتفقوا على خلافته (٢).

ولكن يبقى هذا الخلاف هو الخلاف الذي سينبني عليه الكثير من الاختلافات لأنه كما يقول الشهرستاني: «أعظم خلاف بين الأمة على الإمامة إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان» (٣).

ويقول البغدادي: «وهذا الخلاف باق إلى اليوم - أي زمانه-» (٤).

ولعل هذا الخلاف لخطورته وأهميته، هو ما حدا بالإمام الأشعري أن يجعله أول اختلاف بين المسلمين بعد نبهم ﷺ، ويقرر أنه لم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر رضوان الله عليه، وأيام عمر إلى أيام عثمان بن عفان

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

(٢) انظر مقالات الإسلاميين (ص ٢) والفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٥).

(٣) انظر الملل والنحل (ص ١٥).

(٤) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

رضوان الله عليه ^(١)، وهو يقصد بالأولية هنا أهميته وخطورته، بالرغم من أنه حدث قبله وبعده بعض الاختلافات.

الخلاف الرابع: في شأن فذك ^(٢): وفي توريث التركات عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم نفذ في ذلك قضاء أبي بكر بروايته عن النبي ﷺ: «أن الأنبياء لا يورثون» ونسجل أن أبا بكر حين منع فاطمة من الميراث منع زوجات النبي ﷺ ومنهن السيدة عائشة، ولذلك رضيت السيدة فاطمة بعد أن سمعت رواية الصديق عن أبيها ^(٣)، ولكن استغل هذا الحادث من قبل بعض الفرق ونفخوا في أواره وخاضوا في أبي بكر الصديق بسببه.

الخلاف الخامس: اختلفوا في مانعي الزكاة: فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة، وقال قوم بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: «والله لو منعوني عقلاً مما أعطوا رسول الله لقاتلتهم عليه» ومضى بنفسه إلى قتالهم ووافقه جماعة الصحابة بأسرهم وقد أدى اجتهاد عمر رضي الله عنه في أيام خلافته إلى رد السبايا والأموال إليهم وإطلاق المحبوسين منهم والإفراج عن أسراهم ^(٤).

وكان مرد الخلاف بين أبي بكر وعمر، أن عمر بن الخطاب قال: كيف نقاتلهم، وقد قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» فقال أبو بكر: أليس قد قال: «إلا بحقها»، ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو منعوني عقلاً مما أدوه إلى النبي لقاتلتهم عليه.

(١) مقالات الإسلاميين (ص ٣).

(٢) فذك: قرية بخير وقيل بناحية الحجاز فيها عين ونخل أفاءها الله على نبيه ﷺ فكانت في يده حياته فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى قال علي: إن النبي ﷺ قد جعلها في حياته لفاطمة رضي الله عنها وولدها، وقضى أبو بكر بأنها لا تورث، ولما مات أبو بكر سلمها عمر للعباس وعلي يليانها ولا يملكانها.

(٣) دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ١٨٦).

(٤) الملل والنحل والفرق بين الفرق (ص ١٧).

ويذهب الشيخ مصطفى عبد الرازق: إلى أن الخلاف في قتال مانعي الزكاة أو أهل الردة كما يسمونهم كان أصلاً لما حدث بعد ذلك من الخلاف في الإيمان والإسلام وتضمنهما للعمل أو عدم تضمنهما له^(١).

الخلاف السادس: في تنصيب أبي بكر على عمر بالخلافة وقت الوفاة، فمن الناس من قال: وليت علينا فطماً غليظاً، وارتفع الخلاف بقول أبي بكر لو سألتني ربي لقلت: وليت عليهم خيرهم لهم، وقد وقع في زمانه اختلافات كثيرة في مسائل ميراث الجد والإخوة والكلالة وفي عقل الأصابع وديات الأسنان وحدود بعض الجرائم التي لم يرد فيها نص هذا وإنما كانت أهم أمورهم: الاشتغال بقتال الروم، وغزو العجم ففتح الله تعالى الفتوح على المسلمين وكثرت السبايا والغنائم، وكانوا كلهم يصعدون عن رأي عمر رضي الله عنه، فانتشرت الدعوة وظهرت الكلمة ودانت العرب ولانت العجم^(٢).

ولكن بدأت بعض الآراء تظهر وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لها بالمرصاد، فقد ظهر رجل يقال له: «صبيغ بن عسل» يسأل عن المتشابه ويتكلم فيما لا يعنيه مما قد يحدث فتناً بين العامة فطلبه عمر وقال له: من أنت؟ قال عبد الله صبيغ، وقال عمر: أنا عبد الله عمر، فأخذ يضربه بعراجين النخل حتى دمي رأسه فقال صبيغ: حسبك يا أمير المؤمنين فقد ذهب الذي كنت أجدّه في رأسي، ثم نفاه إلى البصرة حتى صلح حاله^(٣).

وسيدنا عمر رضي الله عنه مثال للخليفة الناصح الذي لا يترك أمراً يمر دون أن يقومه وأن يعيده إلى نصابه.

وبالجملة فقد كان الصحابة على كلمة واحدة في أبواب العدل والتوحيد

(١) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٨٤).

(٢) الملل والنحل (ص ٢٠ - ٢٦).

(٣) انظر التبصير في الدين للإسفراني (ص ٢) بتصرف يسير.

والوعد والوعيد وسائر أصول الدين، وكانوا على هذه الجملة في أيام أبي بكر وعمر وست سنين من خلافة عثمان^(١).

الخلاف السابع: في أمر الشورى واختلاف الآراء فيها، واختلفوا كلهم علىبيعة عثمان رضي الله عنه وانتظم الأمر واستمرت الدعوة في زمانه وكثرت الفتوح وامتلاء بيت المال وعاشر الخلق على أحسن خلق وعاملهم بأبسط يد غير أن أقاربه من بني أمية قد ركبوا نهابر (مهالك) فركبته، وجاروا فجير عليه ووقعت في زمانه اختلافات كثيرة وأخذوا عليه أحداثاً كلها محال على بني أمية^(٢)، والأشياء التي وقعت من مخالفه نقموها منه حتى أقدم لأجلها ظالموه على قتله^(٣).

وقد فند أبو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم كل ما لحق بسيدنا عثمان من مخالفه، بالحجة والبيان الشافي وبرأ عثمان مما نسب إليه. وملخص ما قاله عن عثمان: «فلم يأت عثمان منكراً لا في أول الأمر ولا في آخره ولا جاء الصحابة بمنكر، وكل ما سمعت من خبر باطل إياك أن تلتفت إليه»^(٤).

وينفذ الشيخ محمد عبده ببصيرة إلى فترتين: فترة الرسول ﷺ والخليفين من بعده، وبين الزمن الأخير من عهد سيدنا عثمان.

يقول في رسالة التوحيد: «مضى زمن النبي ﷺ وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة وقضى الخليفان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم، ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد إليهما، وقضى الأمر فيه بحكمهما وبعد استشارة من جاورهما من أهل

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٧).

(٢) الملل والنحل (ص ٢٠ - ٢٦).

(٣) الفرق بين الفرق (ص ١٧).

(٤) انظر العواصم من القواصم (ص ٦٠) وانظر (ص ٦١ - ٨٠).

البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يوهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يُفهم من ظاهر اللفظ... كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله فهوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها وبقي القرآن قائماً على صراطه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون»^(١).

بالفعل قد تغيرت النفوس، فقد حدث الخلاف بين الصحابة في أمر الخلافة بعد موت رسول الله ﷺ، ولكن رُفع الخلاف وباع الصحابة أبا بكر بعد سماعهم لحديث ورد عن رسول الله ﷺ يرفع النزاع.

أما في عهد سيدنا عثمان فإن السيوف قد سُلت وإن الأحزاب قد تحزبت. لماذا؟ لأنه قد كثر الداخلون في الإسلام وليس لهم من الدين إلا اسمه، ومنهم من دخل وهدفهم الأول والأخير الكيد للإسلام وبدأ هؤلاء الحاقدون يثيرون الاضطرابات في وجه عثمان رضي الله عنه وقامت الفتنة ولم تسكن بعد^(٢).

الخلاف الثامن: في زمان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بعد الاتفاق عليه وعقد البيعة له.

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده (ص ٢٤، ٢٥) دار المعارف الطبعة الثالثة.

(٢) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ١٩١ - ١٩٢).

فأوله خروج طلحة والزبير إلى مكة ثم حمل عائشة إلى البصرة ثم نصب القتال معه ويعرف ذلك بحرب الجمل والحق أنهما رجعا وتابا إذ ذكرا أمرًا فتذكراه فأما الزبير فقتله «ابن جرموز» بقوس وقت الانصراف وهو أي قاتله في النار لقول النبي ﷺ: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»، وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم وقت الإعراض فخر ميتًا، وأما عائشة رضي الله عنها فكانت محمولة على ما فعلت ثم تابت بعد ذلك ورجعت والخلاف بينه وبين معاوية وحرب صفين ومخالفة الخوارج وحمله على التحكيم ومغادرة عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري وبقاء الخلاف إلى وقت وفاته مشهور، وكذلك الخلاف بينه وبين الشراة المارقين بالنهروان عقدًا وقولاً ونصب القتال معهم فعلاً ظاهرًا معروف^(١).

وقد حدثت الخلافات العقدية في عهد سيدنا علي رضي الله عنه خاصة من الخوارج الذين كونوا فرقة لم تكتف بمخالفة المسلمين فكريًا وعقديًا، ولكنهم تعدوا الفكر إلى حمل السلاح، فكفروا مخالفهم وأقاموا في كثير منهم القتل وقد انبرى لهم الصحابة رضوان الله عليهم بالرد وتفنيده ما أثاروه من عقائد وجادلوهم بالحجة والبرهان، فمنهم من استجاب ومنهم من استمر في غيه ولم يرجع إلى الحق وكان دينهم تكفير علي وعثمان وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه والحكمين ومن رضي بالتحكيم وتكفير كل ذي ذنب ومعصية^(٢)، وهكذا وضعت البذور الأولى لاختلاف الفرق فيما بعد.

المسألة الثامنة: بداية التفرق العقدي:

انقضى عصر الخلفاء الراشدين وظهرت رؤوس مسائل عقدية، وبدأت الفرق الدينية والسياسية تظهر وتبلور، غير أن أهم مسألة شغلت المسلمين بعد الإمامة هي:

(١) الملل والنحل للشهرستاني (ص ٢٥، ٢٦).

(٢) الفرق بين الفرق (ص ٨١) تحقيق محي الدين عبد الحميد.

مسألة القدر:

وهي المسألة التي كانت أساسًا للتفرق والاختلاف بعد عهد الرسول ﷺ
 لقد كان هناك من يسأل عن القدر ويحتج به في عهد الخلفاء الراشدين.
 ففي عهد عمر رضي الله عنه أتى بسارق فقال له عمر: لم سرقت؟ فقال:
 قضى الله عليّ فأمر عمر به فقطعت يده وضرب أسواطًا فليل له في ذلك
 فقال: القطع للسرقة والجلد للكذب على الله. فنحن نرى أن الرجل زعم أن
 القدر يبرر الجريمة، فما كان من سيدنا عمر إلا أن اعتبر ذلك من الكذب
 على الله.

وفي عهد سيدنا عليّ قام شيخ إليه فقال: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان
 بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئًا، ولا
 هبطنا وادئًا إلا بقضاء الله وقدره. فقال الشيخ: فعند الله أحسب عناي، ما
 أرى لي من الأجر شيئًا، فقال: مه أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم في
 مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في
 حالاتكم مكرهين ولا مضطرين، فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقنا؟
 فقال: ويحك لعلك ظننت قضاءً لازمًا وقدرًا حتمًا لو كان ذلك كذلك حتمًا
 لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهي ولم تأت لائمة من الله
 لمذنب ولا محمداً لمحسن ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا
 المسيء أولى بالذم من المحسن تلك مقالة غُبات الأوثان وجنود الشيطان
 وشهود الزور أهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها إن الله
 أمر تخييرًا ونهى تحذيرًا وكلف تيسيرًا ولم يخلق السماوات والأرض وما
 بينهما باطلاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال هو الأمر من
 الله والحكم ثم تلا قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾
 [الإسراء: ٢٣] ^(١).

(١) انظر تاريخ الجدل للشيخ أبي زهرة (١٠٧ - ١٠٨).

ويذهب كثير من أهل العلم إلى أن مسألة القدر والخوض فيها إنما جاء من خارج الجزيرة العربية أعني من البلاد التي فتحها المسلمون واختلطوا فيها بأرباب الديانات الأخرى... ويذكرون أن أول من قال بالقدر: «معبد الجهني»، وقد ورد التصريح بذلك في رواية لمسلم عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني»^(١).

ومعنى أول من قال بالقدر أي ينفي القدر وقد أخذ القول بنفي القدر عن معبد الجهني «غيلان الدمشقي» وكان قبطيًا قدريًا من بلغاء الكتاب قال عنه الساجي: كان قدريًا داعية دعا عليه عمر بن عبد العزيز فقتل وصلب وكان غير ثقة ولا مأمون وكان مالك ينهى عن مجالسته قلت (أي ابن حجر) وكان الأوزاعي هو الذي ناظره وأفتى بقتله وقال رجاء بن حيوة قتله أفضل من قتل ألفين من الروم»^(٢).

والذي يهمنا أن نرصده هو أن أول من قال بنفي القدر معبد الجهني وأنه أخذ الفكرة من رجل يقال له «سوسن النصراني» الذي لم يجرؤ أن يذيع الفكرة في المجتمع الإسلامي فأخذها معبد الجهني وتولى نشرها، ثم بعد ذلك نادى بها غيلان الدمشقي، الذي كان نصرانيًا وجاهر بمذهبه وتأثر به بعض المسلمين.

وكان نفي القدر ومرتكب الكبيرة والتكفير بالمعصية والاختلاف حول الصفات وحول كلام الله، القرآن الكريم هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ وحول الجبر والاختيار وهل الإنسان مسيرٌ أو مخير؟ من المسائل التي شغلت المسلمين كثيرًا وتسبب عنها التفرق والجدال.

المسألة التاسعة: حديث افتراق الأمة وما دار حوله:

روى الإمام أحمد وأبو داود من رواية معاوية رضي الله عنه قال: قام فينا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/١٥٠ - ١٥٦).

(٢) لسان الميزان لابن حجر (٤/٤٢٢).

رسول الله ﷺ فقال: «إلا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة»^(١).

وروى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تفترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»^(٢).

موقف العلماء من هذه الأحاديث:

أولاً: رفض هذه الأحاديث جملة وتفصيلاً:

ممن ذهب إلى هذا الإمام ابن حزم في الفصل.. يقول: «هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد وما كان هكذا فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد فكيف بمن لا يقول به»^(٣).

ثانياً: قبول الأحاديث ورفض التنصيص على الناجية والهللكى بعض العلماء قَبِلَ الأحاديث ولكنه رفض الزيادة التي تنص على الهلكى والناجية، ويمثل هذا الفريق «ابن الوزير» في كتابه «العواصم والقواصم» حيث يقول: إياك أن تغتر بزيادة كلهم في النار إلا واحدة فإنها زيادة فاسدة ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة، والذين يرفضون هذه التكملة لهم سند من الرواية التي تذكر أن اثنتين وسبعين فرقة في الجنة وواحدة في النار فإن هذا التذييل هو نقيض التذييل المشهور الذي يذكر أن الفرق كلها في النار إلا واحدة،

(١) أخرجه أبو داود في سننه باب: شرح السنة من كتاب السنة الحديث رقم (٤٥٩٧) (٥/٥، ٦) عن معاوية وأحمد في المسند عن أنس بن مالك (١٢٠/٣) وله شاهد عند الترمذي في كتاب الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه باب: افتراق الأمم الحديث (٣٩٩١)، والترمذي كتاب الإيمان وقال حديث حسن صحيح. انظر مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ١٣، ١٤).

(٣) انظر تاريخ الفرق الإسلامية (ص ١٩).

ويمكن أن يقال إن الروایتين تعارضتا فتساقطتا، وبقي صدر الحديث مقبولا.

٣- قبول الحديث مع رفض مفهوم العدد:

هناك من قَبِلَ هذه الأحاديث ولكنهم رفضوا مفهوم العدد الذي يعني في نصوص متعددة التكثير، وعندهم أن النبي ﷺ أخبر أن اليهود ستفترق فرقا كثيرة وكذلك النصارى، وأن أمته ستفترق أكثر منهما، دون حصر لعدد معين لأي من الطوائف الثلاث، واستعمل لفظ السبعين للدلالة على الفروق في هذه الكثرة بين الأمم الثلاث^(١).

إلا أننا نلاحظ:

أولاً: أن هذه الفرق على كثرتها كما أخبر النبي ﷺ ليست خارجة عن الإسلام وإنما هي من أمة الإسلام، بدليل قول النبي ﷺ «ستفترق أمتي»، فلم يكفرهم النبي ﷺ، وإنما أبقاهم في عموم الأمة، أمة التوحيد ونحن نبدي تلك الملاحظات لنقف أمام نزعة التكفير عند البعض لأناس من أمة الإسلام فاختلافهم لا يخرجهم عن الإسلام.

ثانياً: يتبين لنا خطأ من صدر كتابه بهذه الأحاديث ثم فصّل ونزّل العدد على فرق بعينها كما فعل الشهرستاني في الملل والنحل والبغدادى في الفرق بين الفرق، لأن الذين فعلوا ذلك تعسفوا في تحديد الفرق ليناسب العدد في الأحاديث، ونحن نقول لهم: وماذا لو نشأت فرق جديدة بأسماء جديدة على نفس الشروط التي وضعتوها في تعداد الفرق؟ ولذلك يبقى مفهوم العدد الوارد في الأحاديث يراد به التكثير لا العدد بذاته حتى نخرج من دائرة التحديد المؤدية إلى التناقض، ومخالفة العدد من جهة، وواقع نشأة الفرق من جهة أخرى، والتعصب من جهة ثالثة؛ لأن كل فرقة تدعي أنها الفرقة الناجية دون سواها.

(١) انظر: بتصرف تاريخ الفرق الإسلامية (ص ١٩ - ٢٦) للدكتور محمود مزروعة.

ثالثاً: أن هناك بعض الفرق خرجت أصلاً عن الإسلام، ومن ثمَّ فالحق يقتضي أن لا ندخل هذه الفرق في عدد الفرق الإسلامية، وإنما نقول الفرق المنتسبة إلى الإسلام، مثل غلاة الشيعة والباوية والبهائية والإسماعيلية وغيرهم. «رابعاً: يجب أن نفسح المجال لرواية أخرى وردت ضمن حديث الافتراق تفيد أن كل هذه الفرق في الجنة إلا واحدة، يقول الدكتور عبد الحلیم محمود: «ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور أن الشعراني في ميزانه» روى من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب وهو «ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة» وفي رواية عن الديلمي «الهالك منها واحدة».

وفي هامش الميزان عن أنس عن النبي ﷺ: «تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة» وما في هامش الميزان هذا مذكور في تخريج أحاديث مسند الفردوس «للحافظ ابن حجر» ولفظه: «تفترق على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة وهي: «الزنادقة» أسنده عن أنس.

وقال صاحب كشف الخفاء: «ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية ولو مآلاً... فتأمل»^(١).

* * *

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام (١٠٨/١ - ١٠٩)، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م الدار المصرية. وانظر: للأهمية كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني (١٤٩/١ - ١٥٠) مكتبة الغزالي. دمشق.